جهود الصحابة في حفظ السنة وتدوينها

محمد حسن الإبراهيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الطيبين، الذين اختارهم الله لصحبة رسوله، وحمل رسالته للعالمين، فقاموا بها، وبذلوا في سبيلها كل غال ورخيص، ولازموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحفظوا حديثه، ونشروا سنته، ونافحوا عنها، وتشددوا في روايتها، لئلا ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقله، وكتب بعضهم بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض حديثه، وحرص عليه، فلم تمتد أيدي العابثين إليه، وجاء من بعدهم التابعون وأتباعهم، والعلماء العاملون وتلاميذهم فقاموا بما قام به من قبلهم إلى أن جاء بعض الضلال ممن استحكمت فيهم الأهواء، وزاغت أبصارهم عن الحق، فصار يشكك في السنة النبوية ويطعن فيها، وأنها لم تدون إلا بعد سنين متطاولة، وآماد متباعدة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يريدون دفع المسلمين عن دينهم، وإبعادهم عن هدي ربهم، وذلك أنهم لما لم يستطيعوا الطعن في كتاب الله تعالى – وقد تكفل الله بحفظه – دفعتهم أحقادهم إلى الطعن في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل والطعن في بعض أصحابه الذين نقلوا لنا سنته، أو كانوا من المكثرين لحفظها ونشرها، والسبب أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، وهي المبينة لكتاب الله تعالى.

إن هذا البحث سيبرز بمشيئة الله تعالى جانبا من جهود الصحابة رضوان الله عليهم ودورهم في حفظ السنة وتدوينها، وإنها لجهود كبيرة ضخمة، كانت فريدة في نوعها، وعزيزة في وجودها، بل ولا مثيل لها في الأمم الماضية، تجشموا لأجلها الصعاب، وتحملوا في تحصيلها المشاق، وارتحلوا لأجل سماع الحديث الواحد، دفعهم لذلك حب النبي صلى الله عليه وسلم ونصرة دينه، وامتثالًا لأمر ربهم جل وعلا: ﴿فَلَوْلَا

نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1]، فكان من مقتضى البحث أن أتناول فيه المباحث التالية:

المبحث الأول: تعريف الصحابي لغة وعند المحدثين.

المبحث الثاني: فضل الصحابة رضي الله عنهم من خلال القرآن والسنة.

المبحث الثالث: حرص الصحابة على حفظ السنة ورحلتهم من أجلها.

المبحث الرابع: تدوين السنة بين الحظر والإباحة.

المبحث الخامس: أبرز المدونات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأهميتها.

المبحث السادس: تدوين السنة في عهد الصحابة رضي الله عنهم.

المبحث السابع: شبهات بعض المغرضين في السنة النبوية والرد عليها.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول.

المبحث الأول: تعريف الصحابي لغة وعند المحدثين

الصحابي لغة

قال ابن منظور: صَحِبَه يَصْحبُه صُحْبة بالضم، وصَحابَةً بالفتح، وصاحبه: عاشره، والصَّحْبُ جمع الصاحب، والأصحاب جماعة الصَّحْب، والصاحب: المعاشر[2].

وقال الفيروز آبادي: صَحِبَه صَحابةً وصُحْبةً: عاشره. واستصحبه: دعاه إلى الصحبة ولازمه[3].

ونقل عن القاضي أبي بكر الباقلاني قوله: "والصحابي مشتق من الصحبة، وليس مشتقًا من قدر خاص منها، بل هو جار على كل من صحب غيره قليلًا كان أو كثيرًا، كما أن القول: مكلم، ومخاطب، وضارب، مشتق من المكالمة، والمخاطبة، والضرب، وجاء على كل من وقع منه ذلك قليلا كان أو كثيرا، وكذلك جميع الأسماء المشتقة من الأفعال، وكذلك يقال: صحب فلانا حولا ودهرا وسنة وشهرًا ويومًا

١- سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

٢- محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، ج ١، ص ٥١٩.

٣- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١، ص١٣٤.

وساعة، فيوقع اسم الصحابة بقليل ما يقع منها وكثيره"[٤].

والخلاصة مما نقلنا: أن الصحبة تعني الملازمة والمعاشرة سواء كانت هذه الملازمة والمعاشرة قليلة أو كثيرة.

الصحابي عند المحدثين

اختلف العلماء فيمن يطلق عليه اسم الصحابي، فمن المحدثين من يرى أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو صحابي[٥]. وقد ذكر الإمام أحمد رحمه الله تعالى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بدر، فقال: "ثم أفضل الناس بعد هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، القرن الذي بعث فيهم، كل من صحبه سنة أو شهرًا أو يومًا أو ساعة، أو رآه فهو من أصحابه، له من الصحبة على قدر ما صحبه..."[٦].

وكذلك قال علي بن المديني: "من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم"[٧].

ووافقهما الإمام البخاري فقال: "ومن صحب النبي صلى الله عليه وسلم، أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه"[٨]. إذًا فهم يكتفون بمجرد الرؤية والصحبة ولو ساعة من نهار على من يطلق عليه اسم الصحابي، بينما يرى بعض الأصوليين أنه لا بد من طول مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتباع له والأخذ عنه. بل هناك من يرى أنه لا يعتبر صحابيا إلا إذا جالسه سنة أو سنتين، أو غزا معه غزوة أو غزوتين[٩].

٤- ينظر: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، **الكفاية في علم الرواية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٧م، ص ٥١، والإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **فتح المغيث شرح ألفية الحديث**، تحقيق: صلاح محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج ٣، ص ٧٩.

٥- الإمام السيوطي، **تدريب الراوي شرح تقريب النواوي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م، ج ٣، ص ٢٠٨.

٦- **الكفاية في علم الرواية**، ص ٥١، و**فتح المغيث**، ج ٣، ص٩٦.

٧- **فتح المغيث**، ج ٣، ص ٧٩.

٨- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج ٤، ص ١٨٨، و**الكفاية**، ص٥١، و**فتح المغيث**، ج ٣، ص ٧٩.

٩- قاله سعيد بن المسيب، وينظر: **تدريب الراوي**، ج ٣، ص ٢١٠ -٢١١.

وهناك أقوال أخرى، أشهرها ما ذكره الحافظ ابن حجر بقوله: "وأصح ما وقفت عليه من ذلك: أن الصحابي من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به، ومات على الإسلام. فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى... وهذا التعريف مبني على الأصح المختار عند المحققين، كالبخاري وشيخه أحمد بن حنبل، ومن تبعهما"(١٠).

المبحث الثاني: فضل الصحابة رضي الله عنهم من خلال القرآن والسنة

امتدح الله عز وجل صحابة رسوله صلى الله عليه وسلم في كثير من آيات الذكر الحكيم، ووصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوصاف كانوا أحق بها، وذلك بسبب تفانيهم في دين الله إيمانا وتطبيقا ودعوة إليه، مع البذل والتضحية بالأنفس والأموال والأولاد، والبعد عن الوطن مع الصبر على الشدة.

قال الخطيب البغدادي: "إن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن في آيات يكثر إيرادها ويطول تعدادها، ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة مثل ذلك، وأطنب في تعظيمهم وأحسن الثناء عليهم، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له، مع أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين: القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين. هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتد بقوله من الفقهاء"(١١).

فمن الآيات الدالة على فضلهم قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١٢)، قال ابن عباس فيها: "هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة".

١٠- الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١، ص١٠ و١٢.

١١- **الكفاية**، ص ٤٦-٤٧، و**فتح المغيث**، ج ٣، ص ٩١-٩٢.

١٢- سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

وقال ابن كثير: "والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"(١٣).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١٤).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهم، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياذا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟

وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون"(١٥).

ومنها: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(١٦).

قال ابن كثير: "فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم".

وقال مالك رضي الله عنه: "بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين

١٣- إسماعيل بن عمر بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ١، ص ٦١٤.

١٤- سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

١٥- **تفسير القرآن العظيم**، ج ٢، ص ٦٢٢.

١٦- سورة الفتح، الآية: ٢٩.

فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا. وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١٧).

ومنها: قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١٨).

ففي الآية الأولى امتدح الله سادات المهاجرين، وفي الثانية أثنى على الأنصار، وبيّن فضلهم وشرفهم وكرمهم، وفي الثالثة: ذكر التابعين لهم بإحسان، وهم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية.

"وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾"(١٩).

ونقل عن الإمام أبي محمد بن حزم رحمه الله قوله: "الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعًا، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾(٢٠). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(٢١)، فثبت أن الجميع من أهل الجنة، وأنه لا يدخل أحد منهم النار، لأنهم المخاطبون بالآية السابقة"(٢٢). إلى غير ذلك من الآيات التي تذكر فضل الصحابة وتبين مكانتهم.

١٧- **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٣٣٠.

١٨- سورة الحشر، الآيات: ٨ - ١٠.

١٩- **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٥٥٥.

٢٠- سورة الحديد، من الآية: ١٠.

٢١- سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

٢٢- انظر: **فتح المغيث**، ج ٣، ص٩٤، ومحمد عجاج الخطيب، **السنة قبل التدوين**، دار الفكر، بيروت، ط٦، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٢٥٩.

وكما أن الله أثنى على الصحابة في كثير من الآيات، وفي كثير من المواقف في الهجرة والجهاد والغزوات، فقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة بمثل ذلك، بل وأطنب في تعظيمهم، وأحسن الثناء عليهم، وقد جمعت كتب السنة كثيرا من الأحاديث في مناقبهم وفضائلهم، حتى أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ألف كتابا سماه **فضائل الصحابة** ذكر فيه ما يقارب ألفي حديث وأثر، تدل على المكانة السامية التي حظي بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمن الأحاديث في ذلك:

- ما رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"(٢٣). قال النووي: "واعلم أن سب الصحابة رضي الله عنه حرام من فواحش المحرمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره، لأنهم مجتهدون في تلك الحروب، متأولون... وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة وضيق الحال، بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته صلى الله عليه وسلم وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم وسائر طاعاتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾(٢٤). هذا كله مع ما كان في أنفسهم من الشفقة والتودد، والخشوع والتواضع والإيثار والجهاد في الله حق جهاده. وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء"(٢٥).

- وما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن جابر وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون لهم: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم،

٢٣- **صحيح البخاري**، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذًا خليلًا، ج ٤، ص ١٩٥. ومسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، ج ٤، ص ١٩٦٧، رقم: ٢٥٤١.

٢٤- سورة الحديد، من الآية: ١٠.

٢٥- الإمام يحيى بن شرف النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، دار الريان، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج ١٦، ص ٩٣.

فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم"(٢٦).

قال النووي: "وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفضائل الصحابة والتابعين وتابعيهم.

- وما أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون"(٢٧).

قال النووي رحمه الله تعالى: "ومعنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء، فانفطرت وانشقت وذهبت. وقوله صلى الله عليه وسلم: "وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون" أي: من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب، واختلاف القلوب، ونحو ذلك مما أنذر به صريحا، وقد وقع كل ذلك. قوله صلى الله عليه وسلم: "وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون" معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذا كلها من معجزاته صلى الله عليه وسلم"(٢٨).

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيرأمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته"(٢٩).

قال النووي رحمه الله تعالى: "والصحيح أن قرنه صلى الله عليه وسلم: الصحابة، والثاني:

٢٦- **صحيح البخاري**، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ج٤، ص ١٨٨. و**صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ج ٤، ص ١٩٦٢، رقم: ٢٥٣٢. وقوله: "فئام" معناه: جماعة، كما في **شرح صحيح مسلم**، ج ١٦، ص٨٣.

٢٧- **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه، ج ٤، ص١٩٦١، رقم: ٢٥٣١.

٢٨- **المنهاج**، ج ١٦، ص ٨٣.

٢٩- **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ج ٤، ص ١٩٦٢، رقم: ٢٥٣٣.

التابعون، والثالث: تابعوهم"(٣٠).

قال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: "وقد كان تعظيم الصحابة، ولو كان اجتماعهم به صلى الله عليه وسلم قليلا مقررا عند الخلفاء الراشدين وغيرهم، فمن ذلك ما قرأت في كتاب **أخبار الخوارج** تأليف: محمد بن قدامة المروزي عن نبيح العنزي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا عنده وهو متكئ فذكرنا عليا ومعاوية، فتناول رجل معاوية، فاستوى أبو سعيد الخدري جالسا ثم قال: كنا ننزل رفاقا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنا في رفقة فيها أبو بكر، فنزلنا على أهل أبيات، وفيهم امرأة حبلى، ومعنا رجل من أهل البادية فقال للمرأة الحامل: أيسرك أن تلدي غلاما؟ فقالت: نعم، قال: إن أعطيتني شاة ولدت غلاما، فأعطته، فسجع لها أسجاعا، ثم عمد إلى الشاة فذبحها وطبخها، وجلسنا نأكل منها ومعنا أبو بكر فلما علم بالقصة قام فتقيأ كل شيء أكل. قال: ثم رأيت ذلك البدوي أتي به عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وقد هجا الأنصار، فقال لهم عمر: لولا أن له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أدري ما نال فيها لكفيتكموه، ولكن له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم".

قال رحمه الله تعالى: "ورجال هذا الحديث ثقات، وقد توقف عمر رضي الله عنه عن معاتبته فضلًا عن معاقبته، لكونه علم أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك أبين شاهد على أنهم كانوا يعتقدون أن شأن الصحبة لا يعدله شيء"(٣١).

وخاتمة القول: قول أبي زرعة الرازي رحمه الله تعالى: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى ذلك كله إلينا الصحابة، وهؤلاء الزنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، فالجرح بهم أولى"(٣٢).

المبحث الثالث: حرص الصحابة على حفظ السنة ورحلتهم من أجلها

ملك حب النبي صلى الله عليه وسلم قلوب أصحابه، فتفانوا في الدفاع عنه بالنفس والمال، وتزاحموا لحضور مجالسه، والاستماع لحديثه، وسارعوا إلى تطبيق ما يسمعونه والعمل به، ونشره والارتحال من أجله، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم: "نضر الله امرأ سمع مني حديثا فحفظه حتى يبلغه فرب مبلغ

٣٠- **المنهاج**، ج ١٦، ص ٨٥.

٣١- **الإصابة**، ج ١، ص ٢٠ و**فتح المغيث**، ج ٣، ص ٩٥.

٣٢- **الكفاية**، ص ٤٩.

أحفظ من سامع"(٣٣).

- فمن حرصهم رضي الله عنهم على حضور مجالسه والاستماع لحديثه ما أخرجه البخاري رحمه الله عن عمر رضي الله عنه قال: "كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك..." الحديث(٣٤).

- بل قد بلغ من حرص الصحابة على الالتزام بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يفعلون ما يفعل، ويتركون ما يترك دون معرفتهم بحكمة ذلك، أو سؤالهم عنه، لأنهم علموا أن ذلك وحي من الله تعالى، فقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتما من ذهب، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني اتخذت خاتما من ذهب" فنبذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "إني لن ألبسه أبدا" فنبذ الناس خواتيمهم(٣٥).

- كما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم، فلما قضى صلاته قال: "ما حملكم على إلقاء نعالكم؟" قالوا: يا رسول الله، رأيناك ألقيت نعليك، فقال: "إن جبريل أخبرني أن فيهما قذرا"(٣٦).

وإن ما كان منهم رضي الله عنهم لم يكن إلا امتثالًا لطاعة الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٣٧)، والتزاما بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى"، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: "من أطاعني دخل الجنة،

٣٣- أخرجه أحمد بن حنبل في **المسند**، طبعة دار صادر، بيروت، ج١، ص٤٣٧ وأبو داود في **سننه**، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، ج٣، ص٣٦٠، والترمذي في **سننه**، كتاب العلم، باب الحث على تبليغ السماع، ج٥، ص٣٣، وابن ماجه في **سننه**، المقدمة، ج١، ص٨٤.

٣٤- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب العلم، باب التناوب في العلم، تحقيق: مصطفى ديب البغا، من طبعة دار ابن كثير، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج ١، ص ٤٦.

٣٥- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم، ج ٦، ص٢٦٦١.

٣٦- أخرجه أبو داود، **السنن**، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل، ج ١، ص ٢٤٧، وأحمد، **المسند**، ج١، ص٤٦١، والدارمي، **السنن**، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعلين، ج ١، ص٣٧٠.

٣٧- سورة الأحزاب، من الآية: ٢١.

ومن عصاني فقد أبى"(٣٨).

- ومن حرصهم على حفظ السنة وصيانتها أنهم كانوا يرتحلون لأجل سماع الحديث الواحد، لئلا يحول الموت دون سماعهم له. فقد جاء عن جابر رضي الله عنهما قال: "بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص ولم أسمعه، فابتعت بعيرا فشددت رحلي عليه ثم سرت شهرا حتى قدمت مصر، فأتيت عبد الله بن أنيس فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فأتاه فأخبره، فقام يطأ ثوبه حتى خرج إلي فاعتنقني واعتنقته، فقلت له: حديث بلغني عنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسمعه في القصاص، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال عبد الله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يحشر الله العباد، أو قال: الناس عراة غرلا بهما، قال: قلنا: ما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة..." الحديث(٣٩).

المبحث الرابع: تدوين السنة بين الحظر والإباحة

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتجهوا إلى جمع القرآن الكريم في الصدور، وكتابته في السطور، وذلك بتوجيه من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ملك القرآن ببلاغته وجزالته وأسلوبه قلوبهم، فاهتموا به كتابة وحفظا وتطبيقا.

أما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان كثيرًا، "فله في كل حادثة قول، وفي كل استفتاء توضيح، وفي كثير من الوحي القرآني تبيان وتفسير، فأنى للكتبة منهم الوقت لمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابة جميع ما يقوله أو يعمله أو يقر الناس عليه؟"(٤٠).

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن كتابة الحديث الشريف. جاء في **صحيح**

٣٨- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج ٦، ص٢٦٥٥، وأحمد، **المسند**، ج ٣، ص٢٦١، من مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٩- أحمد في **المسند**، ج ٣، ص٤٩٥، والبخاري في **الأدب المفرد**، باب المعانقة، ج ١، ص٣٣٧، قال الألباني: صحيح. والحاكم في **المستدرك**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ج٢، ص ٤٧٥، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، كلهم من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر.

٤٠- صبحي الصالح، **علوم الحديث ومصطلحه**، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٧، ١٩٨٨م، ص ١٩.

مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"(٤١)، وبناء على هذا فقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في كتابة الحديث، فكرهها بعضهم، لحديث أبي سعيد هذا، وأباحها جمع كبير منهم، لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه في فتح مكة خطب الناس فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال: يا رسول الله! اكتبوا لي، فقال: "اكتبوا لأبي شاه"(٤٢).

وما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله: "ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب"(٤٣).

وثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: "كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه، قال: اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق"(٤٤).

وقد حاول العلماء الإجابة عما ورد من النهي عن الكتابة، وما جاء من الإباحة منها بأجوبة: منها: أن حديث أبي سعيد الخدري موقوف(٤٥) لا يحتج به. لكن الشيخ أحمد شاكر يرى أن هذا غير جيد،

٤١- **صحيح مسلم**، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، ج٤، ص٢٢٩٨، رقم: ٣٠٠٤.

٤٢- **صحيح البخاري**، كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، ج ٢، ص ٨٥٧. و**صحيح مسلم**، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخيرها وشرها، ج ٢، ص ٩٨٨.

٤٣- **صحيح البخاري**، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ج ١، ص٥٤، وعبد الله بن عبد الرحمن، **سنن الدارمي**، باب من رخص في كتابة العلم، ج١، ص١٣٦.

٤٤- سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ج ٢، ص ٣٤٢، رقم: ٣٦٤٦، وأحمد في **المسند**، ج ٢، ص ١٦٢و١٩٢، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير الوليد بن عبد الله. والحاكم في **المستدرك**، كتاب العلم، ج ١، ص١٨٧، رقم: ٣٥٩. قال الذهبي في **التلخيص**: إن كان الوليد هو ابن أبي الوليد الشامي فهو على شرط مسلم.

٤٥- روي هذا القول عن الإمام البخاري، وانظر: الشيخ أحمد شاكر، **الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث**، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٣٢.

وأن الحديث صحيح. أو أن النهي عن الكتابة كان حين خيف اختلاط الحديث بالقرآن وعدم تميزه لغير العارف أول الإسلام، فلما أمن من ذلك أبيحت الكتابة. أو أن المنع من الكتابة كان حتى لا يعتمد عليها، فتضعف القرائح، والإباحة لمن لا يوثق بحفظه.

إلا أن الشيخ أحمد شاكر يرى أن هذه إجابات ليست قوية، وأن النهي منسوخ بأحاديث الإباحة "وحديث أبي شاه في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك إخبار أبي هريرة وهو متأخر الإسلام أن عبد الله بن عمرو كان يكتب، وأنه هو لم يكن يكتب، يدل على أن عبد الله كان يكتب بعد إسلام أبي هريرة، ولو كان حديث أبي سعيد في النهي متأخرا عن أحاديث الإذن والجواز لعرف ذلك عند الصحابة يقينا صريحا"(٤٦).

ويقول الإمام ابن الأثير رحمه الله: "فلما انتشر الإسلام واتسعت البلاد، وتفرقت الصحابة في الأقطار، وكثرت الفتوح، ومات معظم الصحابة، وتفرق الصحابة وأتباعهم، وقل الضبط، احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة، ولعمري إنها الأصل، فإن الخاطر يغفل، والذهن يغيب، والذكر يهمل، والقلم يحفظ ولا ينسى"(٤٧).

وصدق ابن الصلاح حين قال: "ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الأعصر الآخرة"(٤٨).

المبحث الخامس: أبرز المدونات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأهميتها

قد ثبت وقوع الكتابة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في العهد النبوي بما لا يدع مجالا للشك في إذنه صلى الله عليه وسلم بها، وقد وردت أحاديث كثيرة عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تثبت ذلك، ومن أصح ما ورد ما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه... فقام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اكتبوا لأبي شاه"(٤٩).

٤٦- **الباعث الحثيث**، ص ١٣٣، وقد أشار إليه محمد عجاج الخطيب في **أصول الحديث علومه ومصطلحه**، دار المنارة، جدة، ط٦، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص ١٥٨-١٥٩. وانظر ما قاله القاضي عياض رحمه الله عند: النووي، **المنهاج**، ج١٨، ص ١٢٩، ١٣٠، ونقله محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه على **صحيح مسلم**، ج٤، ص ٢٢٩٨.

٤٧- ابن الأثير الجزري، **جامع الأصول**، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، ط١، (المكتبة الشاملة)، ج ١، ص ١٥.

٤٨- عثمان بن عبد الرحمن، **مقدمة ابن الصلاح**، مكتبة الفارابي، ط١، ١٩٨٤م، ج ١، ص ١٠٣.

٤٩- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب اللقطة، باب كيف تعريف لقطة أهل مكة، ج ٢، ص ٨٥٧. و**صحيح مسلم**، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، ج ٢، ص ٩٨٨.

وما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال: "ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده" قال عمر رضي الله عنه: إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط قال: "قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع"(٥٠).

ومن أشهر ما كتب في حياة النبي صلى الله عليه وسلم **الصحيفة الصادقة**، التي كتبها الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان عبد الله يحرص على هذه الصحيفة، ويعظم من أمرها ويقول: "ما يرغبني في الحياة إلا الصادقة والوهط، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها"(٥١).

وبلغ من حرصه عليها أنه لم يأذن لأحد أن يتناولها حتى لو كان من أقرب الناس إليه وأخصهم به، كتلميذه مجاهد بن جبر فإنه قال: أتيت عبد الله بن عمرو فتناولت صحيفة من تحت مفرشه فمنعني، قلت: ما كنت تمنعني شيئا قال: هذه الصادقة، هذه ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه أحد(٥٢).

وكانت تحوي هذه الصحيفة ألف حديث، كما قال عبد الله بن عمرو: "حفظت عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل"(٥٣).

حفظ لنا **مسند الإمام أحمد بن حنبل** رحمه الله تعالى معظمها، كما في مسند عبد الله بن عمرو من المسند من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده(٥٤).

وهناك صحيفة دوّن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها دستور الدولة الإسلامية، وحقوق المهاجرين والأنصار واليهود، وكان مما فيها ما سأل عنه أبو جحيفة عليا رضي الله عنه قال: "قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت:

٥٠- أخرجه البخاري، **الصحيح**، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ج ١، ص ١١٨.

٥١- **سنن الدارمي**، المقدمة، باب من رخص في كتابة العلم، ج١، ص١٣٨، وإسناده ضعيف، لضعف ليث بن أبي سليم.

٥٢- الخطيب البغدادي، **تقييد العلم**، تحقيق: يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ط٢، ١٩٧٤م، ص ٨٤.

٥٣- ابن الأثير الجزري، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ج ٣، ص ٣٤٦.

٥٤- **المسند**، ج ٢، ص ١٥٨-٢٢٦.

فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر"(٥٥).

وما كتبه صلى الله عليه وسلم إلى أمرائه وعماله مما يتعلق بشؤون الدولة وتدبير أمورها، وأنصبة الزكاة، ومقادير الديات والحدود، وما راسل به صلى الله عليه وسلم الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام، وما أبرمه من عهود ومواثيق مع الكفار واليهود. وغير ذلك مما يثبت أن ما كتب في عهده صلى الله عليه وسلم ليس قليلًا(٥٦).

المبحث السادس: تدوين السنة في عهد الصحابة

تبين لنا مما تقدم أن كتابة الحديث والإذن بها كانت في المرحلة الأخيرة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع هذا فإن النهي عن كتابة الحديث بقي ملازما لنفوس بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يكتبون، ولا يكتبون، فهذا أبو نضرة يقول: "قلنا لأبي سعيد: لو كتبتم لنا، فإنا لا نحفظ؟ قال: لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحف، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا عنا كما نحفظ عن نبيكم"(٥٧).

وعن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنة، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنة، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا(٥٨).

وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يجمع بعض الأحاديث(٥٩) ثم يحرقها. فقد روى الحاكم بسنده عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيرا، فلما أصبح قال: "أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فحرقها".

٥٥- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ج ١، ص ١١٥. والعقل هو مقادير الديات.

٥٦- ينظر: نور الدين عطر، **منهج النقد في علوم الحديث**، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٤٥ وما بعدها، وسمر العشا، **المدخل إلى دراسة الحديث والسنة**، ص ٢٢٢- ٢٢٤.

٥٧- **تقييد العلم**، ص ٣٦.

٥٨- المصدر السابق، ص ٤٩.

٥٩- ينظر: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٥.

إلى غير ذلك مما ورد عن تشدد بعض الصحابة في كتب حديث النبي صلى الله عليه وسلم، بينما نرى أن أنسًا رضي الله عنه كان يقول لبنيه: "يا بني، قيدوا هذا العلم"(٦٠).

وأن الحسن رضي الله عنه كان يدعو بنيه وبني أخيه ويقول لهم: "يا بني وبني أخي: إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه ـ أو قال: يحفظه ـ فليكتبه وليضعه في بيته"(٦١). بل ورأينا أن من كان يمتنع عن كتابة الحديث ويتشدد فيه، كان يكتبه وينصح الآخرين بكتابته.

فعن أبي عثمان النهدي قال: كنا مع عتبة بن فرقد فجاءنا كتاب عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يلبس الحرير إلا من ليس له منه شيء في الآخرة إلا هكذا"(٦٢) وأشار بأصبعيه اللتين تليان إبهامه.

وعن علي رضي الله عنه قال: "قيدوا العلم بالكتاب"(٦٣). وعنه أنه قال: "من يشتري مني علما بدرهم؟ قال أبو خيثمة: يقول: يشتري صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم"(٦٤).

بعد ما مضى يمكن القول أن العلة التي سبق وأن ذكرناها في كتابة السنة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أول الأمر هي ذاتها التي كانت عند صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، قال الخطيب البغدادي: "قد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأول إنما هي لئلا يضاهى بكتاب الله غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه"(٦٥). وعلى الرغم مما قلنا فإن تدوين السنة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم قام به بعض أصحابه رضوان الله عليهم، "وقد كتب في عهده صلى الله عليه وسلم ما يضاهي بمجموعه مصنفا كبيرا من المصنفات الحديثية"(٦٦).

٦٠- **سنن الدارمي**، المقدمة، باب من رخص في كتابة العلم، ج١، ص١٣٧، و**تقييد العلم**، ص ٩٦، والإمام يوسف بن عبد البر القرطبي، **جامع بيان العلم وفضله**، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص٨٧.

٦١- **سنن الدارمي**، المقدمة، باب من رخص في كتابة العلم، ج ١، ص١٤٠، وإسناده ضعيف، فيه شرحبيل بن سعد. وانظر: **جامع بيان العلم**، ج ١، ص ٩٩.

٦٢- **صحيح مسلم**، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة، ج ٣، ص ١٦٤١، رقم: ٢٠٦٩.

٦٣- **تقييد العلم**، ص ٩٠.

٦٤- المصدر السابق، ص ٩٠.

٦٥- المصدر السابق، ص ٥٧.

٦٦- ينظر: **منهج النقد**، ص ٤٥.

وما الصحف التي أشرنا إليها إلا جزءا مما دوّنه أولئك العظماء في عهده صلى الله عليه وسلم، وما سنشير إليه من المدونات الأخرى التي كتبت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد ما قاله بعض الباحثين من أن ما كتب يضاهي مصنفا كبيرًا من المصنفات الحديثية، على عكس ما زعمه بعض المستشرقين(٦٧) أن السنة لم تدون إلا في القرن الثاني للهجرة، وأن ما نقل إلينا كان محفوظا في الصدور لا يسلم من أن يعتريه النسيان أو الخطأ. أو أن ما كتب لا يعدو أن يكون مختلقا أو مكذوبا يريد مدونه بذلك دعم رأيه ووجهة نظره، يحاول بذلك تشكيك المسلمين بالمصدر الثاني للشريعة الإسلامية.

فمن المدونات التي كتبها الصحابة(٦٨): ما رواه الترمذي أن سعد بن عبادة الأنصاري كان يملك صحيفة، قال الترمذي: قال ربيعة: وأخبرني ابن لسعد بن عبادة قال: وجدنا في كتاب سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى باليمين مع الشاهد.

وكان عند عبد الله بن مسعود كتابا أيضًا، فقد روى مسعر عن معن قال: "أخرج لي عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود كتابا وحلف لي أنه بخط أبيه بيده"(٦٩). كما كان لرافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب فيه استفتاح الصلاة(٧٠)، دفعه إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أحد الفقهاء السبعة.

وهناك صحيفة(٧١) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب التي اشتهر أمرها، وكان يعلقها في سيفه، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وحرم المدينة، ولا يقتل مسلم بكافر.

كما جمع سمرة بن جندب أحاديث كثيرة في نسخة كبيرة ورثها ابنه سليمان، ورواها عنه، ولعلها التي بعث بها سمرة إلى بنيه، وقال فيها محمد بن سيرين: "في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير"(٧٢).

وكان عند أبي هريرة رضي الله عنه كتب فيها أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد

٦٧- ينظر: **گولدزيهر، علوم الحديث ومصطلحه**، ص ٣٤.

٦٨- ينظر: المراجع التالية: **علوم الحديث ومصطلحه**، ص ٢٣-٣٣ **والسنة قبل التدوين**، ص ٢٢٥-٢٣٤، وأكرم ضياء العمري، **بحوث في تاريخ السنة النبوية**، ص ٢٢٨. وانظر: محمد بن عيسى، **سنن الترمذي**، كتاب الأحكام، باب ما جاء في اليمين مع الشاهد، ج ٣، ص ٦١٠، رقم: ١٣٤٣.

٦٩- **جامع بيان العلم وفضله**، ج ١، ص ٨٦.

٧٠- **الكفاية**، ص ٣٣٠.

٧١- **المسند**، ج ٢، ص ٣٥، ٤٤، ١٢١، ١٣١.

٧٢- **تهذيب التهذيب**، ج ٤، ص ١٩٨.

روى الفضيل بن حسن بن عمرو بن أمية الضمري عن أبيه أنه قال: تحدثت عند أبي هريرة بحديث فأنكره، فقلت: إني قد سمعته منك، فقال: إن كنت سمعته مني فهو مكتوب عندي، فأخذ بيدي إلى بيته، فأرانا كتبا كثيرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد ذاك الحديث فقال: قد أخبرتك أني إن كنت حدثتك به فهو مكتوب عندي(٧٣).

ولعل ما كان مكتوبا عند أبي هريرة قد كلف غيره بالكتابة له، فإنه قال: "ما كان أحد أكثر مني حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب"(٧٤). كما كان لعبد الله بن عمر كتب(٧٥) في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا خرج إلى السوق نظر فيها. وكذلك كان لعبد الله بن عباس كتب تقدر بحمل بعير كما قال موسى بن عقبة: "وضع عندنا ابن كريب مولى ابن عباس حمل بعير من كتب ابن عباس"(٧٦).

وكان لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما صحيفة كان التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي يكبر من قيمتها، ويقول: "لأنا بصحيفة جابر بن عبد الله أحفظ مني لسورة البقرة"(٧٧).

وكتب أبو بكر الصديق لأنس بن مالك رضي الله عنهما كتابا(٧٨) في الصدقات التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا بعض ما ساهم به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفظ السنة في صدورهم، وتدوينها في صحائفهم، مما يدل على أن السنة لم تكن يوما عند المسلمين مهملة أو تطالها عوامل النسيان.

المبحث السابع: شبهات بعض المغرضين في السنة النبوية والرد عليها

منذ جاءت رسالة الإسلام وأعداء الله لها بالمرصاد، يخططون لإطفاء مشعل الهداية، وهدم بناء الأمة المسلمة، ويحيكون المؤامرات للصد عن هذا الدين ومقوماته الأساسية، ويعادونه وأهله بكل ما لديهم من إمكانات. ومعاداتهم إما أن تكون من أعداء الإسلام الذين أعلنوا عداءهم بكل وضوح

٧٣- **جامع بيان العلم وفضله**، ج ١، ص ٨٩.

٧٤- المرجع السابق، ج ١، ص ٨٤.

٧٥- المرجع السابق.

٧٦- محمد بن سعد، **طبقات ابن سعد**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج ٥، ص ٢١٦.

٧٧- المصدر السابق، ج ٧، ص ١-٢، قسم: ٢ أو ج ٥، ص ٣٤٤، **وتذكرة الحفاظ**، ج ١، ص ١١٠.

٧٨- ينظر: **المسند**، ج ١، ص ١٨٣-١٨٤.

وجلاء كالصليبيين والعلمانيين وغيرهم من الملاحدة، وهؤلاء خطرهم قليل، فمعاداتهم سافرة معلنة، والمسلمون منهم على حذر وترقب. وإما أن تكون المعاداة من قبل المنافقين ممن يظهر الإسلام ويبطن العداء للإسلام وأهله، يخادعون المسلمين بأشكالهم وهيئاتهم، ودعاواهم الحرص على الإسلام والدفاع عن وحدة الأمة، بينما هم في الحقيقة يريدون القضاء على الإسلام، وصرف أهله عنه، وذلك بإثارة الشبهات حوله ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٧٩)، وسأكتفي بذكر بعض الشبه والرد عليها.

من هذه الشبهات قولهم(٨٠): إن السنة لم تدون إلا في أوائل القرن الهجري الثاني، وأن ما نقل إلينا كان محفوظا في الصدور لا يسلم من أن يعتريه الخطأ أو النسيان، أو أن ما كتب لا يعدو أن يكون مختلقا أو مكذوبا، يريد مدونه بذلك دعم رأيه ووجهة نظره. وقد تعلق أعداء الإسلام من الرافضة(٨١) والمستشرقين ومن سلك طريقهم بما رواه البخاري في **صحيحه** تعليقا: "وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا"(٨٢)، ذلك أن أول من أمر بتدوين السنة الخليفة عمر بن عبد العزيز، توفي سنة (١٠١هـ)، وهي مدة تكفي لأن يكون فيها من التلاعب والفساد كما حصل لكتب أهل الكتاب، وأن يضع الكذبة والوضاعون فيها ما يشاؤون وينسبونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم زورا وبهتانا، إذ بغير الكتابة لا يمكن حصر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم أو فعله طيلة ثلاثة وعشرين عاما.

وللرد على هذه الشبهة: إن هناك فرقا بين الكتابة والتدوين كما هو معروف عند علماء اللغة. قال في **لسان العرب**: "كتب الشيء كتبا، وكتابة، وكتبه خطه"(٨٣). كما قال أيضًا: "والديوان مجتمع

٧٩- سورة الصف، الآية: ٨.

٨٠- هذا ما زعمه *گولدزيهر*، ينظر: **علوم الحديث ومصطلحه**، ص ٣٤.

٨١- ينظر: **السنة قبل التدوين**، ص ٢٤٨، وعماد السيد الشربيني، **السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام**، دار اليقين، المنصورة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٣٤٦.

٨٢- أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ج ١، ص٤٩، والدارمي في **سننه**، المقدمة، باب من رخص في كتابة العلم، ج ١، ص ١٣٧.

٨٣- **لسان العرب**، ج ١، ص ٦٩٨.

الصحف"[٨٤]. إذًا فالكتابة غير التدوين، الكتابة مطلق خط الشيء دون مراعاة لجمع الصحف المكتوبة في إطار يجمعها، أما التدوين فمرحلة تالية للكتابة، ويكون بجمع الصحف المكتوبة في ديوان يحفظها، فعدم التمييز بين الكتابة والتدوين هو الذي أوقعهم في خطأ فهم ما قاله العلماء: إن السنة لم تدون إلا في نهاية القرن الأول، بمعنى لم تكتب طيلة قرن من الزمن، بل الفهم الصحيح أنها كانت مكتوبة لكنها لم تجمع في الصحف والدفاتر، وهو المراد بتدوين السنة. قال الحافظ ابن حجر: "اعلم ـ علّمني الله وإياك ـ أن آثار النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن في عصر الصحابة وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة..."[٨٥].

فالسنة النبوية حفظت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في الصدور، وكتب بعضها في الصحف، وما أمر به الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يكن أبدا من فراغ، وإنما اعتمد على أصول مكتوبة، كانت محل اعتناء المسلمين فتناقلوها حفظا ومدارسة، مشافهة وكتابة، كالصحف التي كتبت بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، وما قام به أصحابه كذلك بعد وفاته، وهذا دليل على نقض هذه الشبهة وتزييفها.

ومن الشبهات قولهم: إن السنة ليست من الدين، وليس لها صلة بالتشريع الإسلامي، وأن القرآن هو المصدر الوحيد للشريعة الإسلامية، قد اشتمل على الأحكام الشرعية بتفصيلاتها، ما ترك شيئا ولا فرط في شيء، فلا حاجة للسنة ولا مكان لها، مستدلين بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[٨٦]، وبقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٨٧] وبغيرها من الآيات.

هذه الشبهة أطلقها من يسمون بـ: "القرآنيون"[٨٨]، انتسبوا إلى القرآن إيهاما للناس بأنهم

٨٤- المرجع السابق، ج ١٣، ص ١٦٤.

٨٥- الحافظ ابن حجر العسقلاني، **هدي الساري**، تحقيق: نظر محمد الفاريابي، دار الطيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٨م، ص ٨.

٨٦- سورة الأنعام، من الآية: ٣٨.

٨٧- سورة يوسف، من الآية: ١١١.

٨٨- ظهرت هذه الفرقة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من الميلاد في بلاد الهند، ثم انتقلت إلى باكستان بعد استقلالها. ينظر مقدمة **شبهات القرآنيين**.

ملتزمون بكتاب الله القرآن، وأن غيرهم ممن يؤمن بالسنة ويعمل بها ليسوا كذلك.

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الفئة بما رواه المقدام بن معديكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله"(٨٩).

الرد على هذه الشبهة(٩٠)

إن الأمة مجمعة على أن القرآن قد اشتمل على جوانب هذا الدين مجملا في كثير من الأحكام ومفصلا في بعضها، وأن السنة النبوية بينت المجمل وفصلته، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٩١)، وإذا كانوا يزعمون أن القرآن قد فصل كل شيء، وبين كل صغيرة وكبيرة في الدين وفيه الصلاة والزكاة والصيام والحج، فأين في القرآن الكريم عدد الصلوات؟ وأوقات ابتدائها وانتهائها، وعدد الركعات والسجدات في كل صلاة؟ وما هي أركانها؟ وماذا يقرأ فيها، وما واجباتها وسننها ونواقضها... إلى غير ذلك مما لا تقوم الصلاة إلا به، وهل فيه الأنواع التي تخرج منها الزكاة، ومقدار كل نوع؟ وقل مثل ذلك في الصيام والحج.

وما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾(٩٢)، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالكتاب في الآية الكريمة إنما هو اللوح المحفوظ وليس القرآن الكريم، وسياق الآية يوضح هذا، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٩٣)، فإن الآية تتحدث عن عظيم علم الله تعالى، وإحاطته بكل شيء، والمراد بالكتاب في الآية هو اللوح المحفوظ الذي احتوى ما كان وما سيكون.

وعلى تقدير أن الكتاب هو القرآن فإن المراد أن في القرآن كل ما يحتاج إليه المكلفون من عقائد

٨٩- أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ج ٥، ص ١١، والترمذي في كتاب العلم، باب ما نهي أن يقال عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ج ٥، ص ٣٧، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

٩٠- ينظر: محمود محمد مزروعة، **شبهات القرآنيين**، ص ٤٤-٤٧، المكتبة الشاملة.

٩١- سورة النحل، الآية: ٤٤.

٩٢- سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

٩٣- سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

وشرائع وغيرها، وليس معنى ذلك أنه لا يحتاج إلى السنة المبينة له، فهو وحي وكذلك السنة فإنها وحي ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾(٩٤).

وقد وجهنا القرآن إلى الطريق الذي نتوصل به إلى تفصيل ذلك المجمل وبيانه وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٩٥)، فهل يستغنى عن السنة وبيانها لما في القرآن؟

ومن الشبه أيضًا: طعنهم في الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه راوية الإسلام، وأحفظ من روى السنة في دهره، يريدون تشكيك الناس في صدقه وفي روايته، فممن طعنه من القدماء: النظام(٩٦)، وبشر المريسي(٩٧)، والبلخي(٩٨). ولحق بهم من المستشرقين: گولدزيهر، وشبرنجر، وبعض من ينتسب إلى العلم كعبد الحسين شرف الدين العاملي في كتابه **أبو هريرة**، ومحمود أبو رية في كتابه **أضواء على السنة المحمدية**، وأحمد أمين في كتابه **فجر الإسلام**.

وخلاصة أقوالهم(٩٩): أن أبا هريرة رضي الله عنه تأخر إسلامه، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٥٣٧٤ حديثًا، وهي أكثر مما رواه الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة الذين سبقوه إلى الإسلام.

٩٤- سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.

٩٥- سورة الحشر، الآية: ٧.

٩٦- هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام البصري المعتزلي، ولد سنة (١٨٥هـ) وتوفي سنة (٢٢١هـ)، عن (٣٦ سنة)، كان أحد أذكياء العالم، ومن رؤوس المعتزلة، صاحب مقالات وآراء شاذة فيهم. ينظر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٦، ص ٩٧.

٩٧- هو بشر بن غياث المريسي، أبو عبد الرحمن، كان من أصحاب الرأي، ثم اشتغل بعلم الكلام وقال بخلق القرآن، وحكي عنه أقوال شنيعة كفّره أهل العلم بها. **تاريخ بغداد**، ج ٧، ص ٥٧.

٩٨- هو عبد الله بن أحمد بن محمود، أبو القاسم البلخي، من متكلمي المعتزلة البغداديين، صنف في الكلام كتبا كثيرة، وأقام ببغداد، وانتشرت كتبه فيها، توفي ببلخ سنة (٣١٩هـ). **تاريخ بغداد**، ج ٩، ص ٣٨٤.

٩٩- ينظر: مصطفى السباعي، **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٢٣٧، **والسنة قبل التدوين**، ص ٢٨٤ و٢٩١، ومحمد بن محمد أبو شهبة، **دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين**، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ١١١، والمضيرة: مريقة تطبخ باللبن المضير أي الحامض، وربما خلط بالحليب، وكان من أطايب الأطعمة يومئذ.

وأنه لم يكن يكتب بل كان يحدث من ذاكرته، وأنه كان يحدث بما لم يسمعه هو مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم، وأن بعض الصحابة شكوا في حديثه، وبالغوا في نقده، وأنه اشترك في الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وكان يأكل مع معاوية فإذا حضرت الصلاة صلى خلف علي، فإذا قيل له في ذلك قال: مضيرة معاوية أدسم، والصلاة خلف علي أفضل، إلى غير ذلك.

وللرد على هذه الشبهة وغيرها قام بعض العلماء في الدفاع عن أبي هريرة رضي الله عنه فألفوا في ذلك المؤلفات، وكتبوا المقالات التي فضحوا فيها رؤوس الفتنة، وهتكوا أستارهم، وبينوا زيف ما قالوا بالأدلة الدامغة والحجج الباهرة، وعلى رأسهم الإمام ابن قتيبة في كتابه **تأويل مختلف الحديث**، رد فيه على النظام ومن سار على سيره، وكذلك رد الإمام الدارمي على بشر المريسي في كتابه **رد الدارمي على بشر المريسي**، ومن المعاصرين مصطفى السباعي في **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، رد فيه على المستشرقين وعلى أبي رية، وكذلك الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في **ظلمات أبي رية**، وللعلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني **الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والمجازفة** ردا على أبي رية، كما قام محمد بن محمد أبو شهبة برد شبه المستشرقين، والكتاب المعاصرين في كتاب **دفاع عن السنة**، ومحمد عجاج الخطيب كتاب **أبو هريرة راوية الإسلام** و **السنة قبل التدوين** نافح فيهما عن أبي هريرة وبين كذب ما زعموا، وما إليه أرادوا. وغير هؤلاء من علماء الأمة.

أما عن كثرة أحاديثه فقد أبلغ الجواب فيها أبو هريرة نفسه حين قال مروان بن الحكم لأبي هريرة[١٠٠] مغضبا لما نازعه في دفن الحسن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الناس قد قالوا: إنك أكثرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث، وإنما قدمت قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيسير، فقال أبو هريرة: نعم، قدمت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر سنة سبع، وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين سنة سنوات، وأقمت معه حتى توفي، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه، وأنا والله يومئذ مقل، وأصلي خلفه وأحج وأغزو معه، فكنت ـ والله ـ أعلم الناس بحديثه، قد ـ والله ـ سبقني قوم بصحبته والهجرة إليه من القريش والأنصار، وكانوا يعرفون لزومي له فيسألوني عن حديثه، منهم عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فلا ـ والله ـ ما يخفى علي كل حديث كان بالمدينة، وكل من أحب الله ورسوله، وكل من كانت له عند رسول الله منزلة، وكل صاحب له، وكان أبو بكر صاحبه في الغار، وغيره قد أخرجه رسول الله أن يساكنه يعرض بأبي مروان الحكم بن العاص، ثم قال أبو هريرة: ليسألني

١٠٠- ينظر: إسماعيل بن عمر ابن كثير، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ج ٨، ص ١٠٨.

أبو عبد الملك عن هذا وأشباهه فإنه يجد عندي منه علمًا جمًا ومقالًا، قال: فوالله ما زال مروان يقصر عن أبي هريرة ويتقيه بعد ذلك ويخافه ويخاف جوابه.

وفي رواية أن أبا هريرة قال لمروان: إني أسلمت وهاجرت اختيارًا وطوعًا، وأحببت رسول الله حبًا شديدًا، وأنتم أهل الدار وموضع الدعوة، أخرجتم الداعي من أرضه، وآذيتموه وأصحابه، وتأخر إسلامكم عن إسلامي في الوقت المكروه إليكم، فندم مروان على كلامه له واتقاه.

وهل يعجب من قوة حافظة أبي هريرة رضي الله عنه وفي العرب من حفظ أضعاف ما حفظ أبو هريرة؟ ففيهم من حفظ القرآن والحديث والشعر وأنساب العرب، وفيهم من كان أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، وقد حفظ وروى على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون الإسلام كحماد الراوية[١٠١].

ثم إن أبا هريرة رضي الله عنه تحمل هذه الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم خلال السنوات التي تفرغ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم للتبليغ والتوجيه. وقد وفدت عليه القبائل من أطراف الجزيرة العربية، وأبو هريرة يرافق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، وقد حصل فيها أمور تشريعية واجتماعية وسياسية كثيرة، مع أنه لم يسمع كل شيء رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم فقط وإنما عن بعض الصحابة الذين سبقوه بالإسلام، وما رواه الصحابي يسمى مرسلا، ومرسل الصحابي مقبول بإجماع علماء الحديث، لأن الصحابي لا يروي إلا عن صحابي، والصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم في القرآن الكريم، واحتمال أن يروي الصحابي عن تابعي غير وارد ولا معقول.

ولا يشك عاقل في كثرة ما حفظ الخلفاء الراشدون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبقوه إلى الإسلام بسنين متطاولة، إلا أن الله يسر لكل امرئ ما خلق له، فقد يسر الله لأبي هريرة حفظ الحديث ونشر العلم، وقد اختصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوة له ألا ينسى ما سمعه منه، وقد أقام أبو هريرة في المدينة مفتيا ومحدثا وأمد الله في عمره، وقد احتاج الناس إلى ما عنده إلى أن توفاه الله.

بينما اهتم غيرهم بأمور الدولة وسياسة الحكم، وانشغلوا بالفتوحات، وهذه أمور تشغل صاحبها عن بث ما يحمله من العلم.

وأما عن قول النظام في أبي هريرة: أن عمر أكذبه وكذلك عثمان وعلي وعائشة رضوان الله عليهم، فقد رد عليه ابن قتيبة رحمه الله تعالى بقوله: "وأما طعنه على أبي هريرة بتكذيب عمر وعثمان وعلي

١٠١- خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١١، ١٩٩٥م، ج ٢، ص ٣٠١.

وعائشة له فإن أبا هريرة صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوا من ثلاث سنين، وأكثر الرواية عنه، وعمر بعده نحوا من خمسين سنة، وكانت وفاته سنة تسع وخمسين وفيها توفيت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وتوفيت عائشة رضي الله عنها قبلها بسنة، فلما أتى من الرواية عنه ما لم يأت بمثله من صحبه من جلة أصحابه والسابقين إليه اتهموه، وأنكروا عليه وقالوا: كيف سمعت هذا وحدك ومن سمعه معك؟ وكانت عائشة رضي الله عنها أشدهم إنكارا عليه، لتطاول الأيام بها وبه، وكان عمر أيضًا شديدا على من أكثر الرواية أو أتى بخبر في الحكم لا شاهد له عليه، وكان يأمرهم بأن يقلوا الرواية، يريد بذلك ألا يتسع الناس فيها ويدخلها الشوب، ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابي، وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس بن عبد المطلب يقلون الرواية عنه، بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئًا كسعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة...، فلما أخبرهم أبو هريرة بأنه كان ألزمهم برسول الله صلى الله عليه وسلم لخدمته وشبع بطنه، وكان فقيرا معدما، وأنه لم يكن يشغله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غرس الوادي، ولا الصفق بالأسواق... وهو ملازم له لا يفارقه، فعرف ما لم يعرفوا، وحفظ ما لم يحفظوا، أمسكوا عنه. وكان مع هذا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وإنما سمعه من الثقة عنه فحكاه، وكذلك كان ابن عباس يفعل، وغيره من الصحابة، وليس في هذا كذب بحمد الله ولا على قائله إن لم يفهم السامع جناح إن شاء الله"(١٠٢).

وأما اشتراكه في الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وأنه يأكل مع معاوية ويصلي مع علي، فقد رد على هذه الفرية محمد أبو شهبة بقوله: "كيف يصح هذا في العقول، وعلي كان بالعراق، ومعاوية كان بالشام، وأبو هريرة كان بالحجاز، إذ الثابت أنه بعد أن تولى إمارة البحرين في عهد عمر رضي الله عنه لم يفارق الحجاز. وقد قال ابن عبد البر: استعمله عمر على البحرين ثم عزله، ثم أراده على العمل فأبى عليه، ولم يزل يسكن المدينة وبها كانت وفاته، إلا إذا كانت الشيعة ترى أن أبا هريرة أعطي بساط سليمان، أو كانت الأرض تطوى له طيا؟"(١٠٣).

بهذا نعلم أن المستشرقين وأذنابهم لم يألوا جهدا في ذم الإسلام وأهله، والطعن بأهم مصادر

١٠٢- الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، **تأويل مختلف الحديث**، تحقيق: محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م، ج ١، ص ٣٨.

١٠٣- **دفاع عن السنة**، ص ١١١.

الشريعة عند المسلمين، وليس همّهم ـ كما يظن ـ البحث عن الحقيقة، والكشف عن الباطل، وردّ الأمور إلى أصولها، فلا يغتر أحد بما زعموا، ولا يخدع الغر من المسلمين بما وصلوا إليه من اكتشافات أبهرت أنظار الناس، وإنهم على الحق أبدا.

وصدق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في قوله: "... قد لهج أعداء السنة، أعداء الإسلام في عصرنا، وشغفوا بالطعن في أبي هريرة وتشكيك الناس في صدقه وفي روايته، وما إلى ذلك أرادوا، وإنما أرادوا أن يصلوا زعموا إلى تشكيك الناس في الإسلام تبعا لسادتهم المبشرين، وإن تظاهروا بالقصد إلى الاقتصار على الأخذ بالقرآن، أو الأخذ بما صح من الحديث في رأيهم... وما كانوا بأول من حارب الإسلام في هذا الباب، ولهم في ذلك سلف من أهل الأهواء قديما، والإسلام يسير في طريقه قدما، وهم يصيحون ما شاؤوا، لا يكاد الإسلام يسمعهم، بل هو إما يتخطاهم لا يشعر بهم، وإما يدمرهم تدميرا... إن أولئك الأقدمين، زائغين كانوا أم ملحدين، كانوا علماء مطلعين، أكثرهم ممن أضله الله على علم، وأما هؤلاء المعاصرون فليس إلا الجهل والجرأة وامتضاغ ألفاظ لا يحسنونها، يقلدون في الكفر، ثم يتعالون على كل من حاول وضعهم على الطريق القويم"(١٠٤).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. هذا ما يسر الله لي الكتابة في هذا الموضوع المهم، أرجو الله أن يجعله في ميزان حسناتي ووالدي، وهذه بعض النتائج التي توصلت إليها:

١- أن الصحبة تطلق على كل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم أو صحبه ولو ساعة من نهار، وكان مؤمنا به ومات على ذلك.

٢- أن الصحابة رضي الله عنهم لهم من الفضل والسبق والتضحية والجهاد ما امتدحهم به ربهم عز وجل في كثير من آياته، كما أثنى عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم في مواضع من سنته.

٣- أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظه والعمل به.

٤- أن تدوين السنة كان آخر الأمرين منه صلى الله عليه وسلم، وأن النهي نسخ بالأمر بالكتابة، ولولا الكتابة لضاع كثير من السنة.

١٠٤- **مسند الإمام أحمد**، طبعة الشيخ أحمد الشاكر، ج١٢، ص٨٤، وينظر: **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، ص٣٦١.

٥- أن ما كتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان كثيرا، من ذلك ما أبرمه من عهود، وما كتبه إلى العمال، وما راسل به الأمراء والملوك...

٦- أن السنة لم تكن يوما مهملة، ولم تطالها عوامل النسيان، كتب الكثير منها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وعهد أصحابه الكرام.

٧- أن من شبهات المغرضين تأخر تدوين السنة، وأنه لا حاجة لها، ففي القرآن غنية وكفاية، وما نسب إلى أبي هريرة رضي الله عنه من كثرة أحاديثه وأنكرته عائشة رضي الله عنها وغيرها من الصحابة...، ما هي إلا شبهة تنبئ عن جهل، أو سوء نية، يحاول أصحابها التشويش على المسلمين في المصدر الثاني للتشريع الإسلامي.

Companions' efforts in Preserving and Compiling the *Sunnah*.

The writer investigates the contribution of the Prophets' Companions to preserve, practice and pass on the *Sunnah* of the Prophet (SAWS) to subsequent generations of Muslims. He begins this investigation by explaining the meaning, significance and the role played by the Companions in supporting and carrying out the mission of the Prophet (SAWS) in his life-time and after his departure. He substantiates his statement by relevant verses of the Qur'ān and traditions of the Prophet (SAWS). The writer also refutes the views of those who show skepticism regarding the role of the Companions in this gigantic effort or cast other doubts about the authenticity of the Prophet's *Sunnah*.

****